الطائر

قصة بقلم فاضل السباعي

صادف «م ف» غريمه «م ق» في الساحة العامة . وما هو الا ان استيقظت في صدره احقاده كلها دفعة واحدة ، فوجد نفسه مندفعا نحوه ، منقضا عليه . ومن عجب ان يحس به ـ وهو الخصم العنيد ـ وقد غدا بين يديه هشا هينا ... ثم يراه جثة هامدة قد سقطت بحذاء قدميه !

لم يستشعر لصنيعه بايما اثم او حرج ، ولم يجزع ممن قدّر لهم ان يشاهدوا ما فعلت يداه . فهو يعرف جيدا مقدار ما يضمره الناس من بغضاء لغريمه ... حتى لقد خيل اليه ، فيما اخذ يبتعد عن الجثة ، انهم قد تجمهروا حولها يتسارّون مبتهجين !

واحس راحة قصوى ، وهو يتجه نحو احد المباني المطلة على الساحة ليتوارى . فقد تحلل ، اخيرا ، من مشاعر أرّقته زمنا طويلا . وتساءل كيف تأتي لي ان اصرع خصمي بهذا اليسر كله ؟ باية اداة غامضة قتله ! ودنف الى مدخل المبنى : اية قوة كامنة في زندي !

الا أنه أحس ، وهو يصعد الدرج المعتم ، عبئا ثقيلا قد توضع، بغتة ، فوق كاهليه !

وترامى الى سمعه صوت من ادنى الدرج ؟

ـ من هنا .. من هنا لمحته يتوارى !

أصاخ لحظة ، فتلقطت اذناه وقع خطى ترتقي الدرج في اثره .

فاعترته خشية : ماذا يريدون مني ؟ هانذا خلصتهم منه ! الم أرهم يبتهجون ؟ وتلبث : أم ان ذلك كان من رؤى الاحلام ؟!

تابع صعوده ، والخشية في صدره تستحيل الى هلع . ولكن النور ، المنساب من باب السطح ، بعث في نفسه قدرا من الامل .

تصاعدت اليه الجلبة .

يسمعهم يرددون :

ـ هنا اختبا القاتل !

عجب : كيف يجيزون لانفسهم ان يعدوه قاتلا من خلصهم من عدو رهيب ؟!

وانطلق الى السطح .

عبت عيناه من النور ، واستنشق هواء نقيا ، وقد استيقن من النصر الاتي . رفع رأسه الى السماء : حمدا لك ، يا رب ، ليس بي من خوف !

أرعد من ورائه صوت :

ـ مكانك قف !

وبؤدة استدار نحو الصوت : ها هم اولاء قد ادركوني ! رأى احدهم محتميا بباب السطح ، مسددا نحوه فوهة بندقية :

ـ لا تات بحركة ... والا اطلقنا عليك النار !

ووراء الباب يتدافعون ، تشرئب منهم اعناق ، وتتبدى له عيون قد هالها الفزع ! فكر بحزن : انهم يرون فيّ مجرد قاتل ! لم يكن ابتهاجهم ، اذن ، الا من رؤى الاحلام ! انهم لا يرون فيّ الا قاتلا !!

اعتصم بشتات شجاعته :

ـ لماذا تتحاماني ، ايها الرجل ؟

والحربة مشرعة في راس البندقية .

ـ لاننا نخشاك !

ـ ولماذا تخشونني ؟

رددوا :

ـ قاتل ... قاتل ...

وهتف احدهم بصوت مصدوع :

ـ الموت للقاتل !

فهدرت في اثره الاصوات :

ـ الموت للقاتل ... الموت للقاتل ... الموت للقاتل ..

ومن خلال الصمت الذي تلا ، شهق صوت جريح :

ـ خلّفته وراءك شلوا لا حياة فيه !

ـ أو يحزنكم ذلك ؟ ألم يكن عدوكم ؟!

بلغ سمعه صوت ، من مؤخرة الجمع ، واهن كليل :

ـ كان ... عدونا الالد !

فاحس «م ف» راحة :

ـ وقد خلّصتكم منه .

اعلن اخر بصوت محايد :

ـ كان يكرهه منا فريق . ولكن كان يحبه فريق .

فكر : لكم حسبت الكارهين له هم الفريق الاعظم !

وتساءل احدهم من وسط الجمع :

ـ اما كان يكفي اسره ؟

فرد عليه اخر :

ـ كان في وسعه ان يفلت من الاسر !

غمغم «م ف» : آه ! ومن كان يجرؤ على الاقتراب منه ، حتى يتاح اسره ؟

ـ ان احدا منكم لم يتدخل لحمايته ، وهو بين يديّ في

الساحـة ، تحـت !

ههنا شق السكون صوت ، من مؤخرة الجمع ، فـوي راعد :

ـ لاننا ، في الحق ، كارهـون لـه !

وهتف في ذات نفسه مجبوراً : هؤلاء هم يسفرون عن وجوههـم الحـرة !

ـ انت قتلت النفس التيحرمالله قتلهـا .

اتهمه صوت . فدافع :

ـ ... الا بالحق .

وعن كثب تساءل اخـر :

ـ ومن ذا الذي يملأ مكانه ، بعـد ؟

أجاب « م ف » :

ـ لم يكن اصلح الرعيـة !

ومن بعيد ارتفع صوت :

ـ هل كـان قتله خيرا ؟

ـ اجـل !

ـ ومن فرد ان كان خيرا وعدلا ؟

ـ أنـا !

أعلن « م ف » ، وقد غمره اطمئنان سابغ .

ـ من انت ؟ من تكون ، ايهـا الرجل الغامض ؟

سأل سائل ... ثم تعالت الاصوات من كل جانب :

ـ من تكون ؟ من تكون ؟ من تكون ؟ ..

واحس انه امتلأ يقينـا :

ـ انمـا ارسلتني العناية لاخلصكم منه . لقـد كان عدو البشرية.

الم تكونوا كارهين له : تضمرون كراهيتكـم ، ويبديهـا بعضكم امام بعض فـي مجالسكـم الخاصة ؟

ـ بلى ، بلى ، بلى .

« كنا نبغضه جدا »،

« كانت صدورنا مترعة بالغل ! » .

« هل قتلته ؟ هل قتلته حقا !؟ » ..

هتف صوت جهيـر :

ـ انه ، في الساحـة ، جثة هامدة .

فاذا هم ينتشرون على السطح ، حوله ، آمنين .والبندقية طأطأت.

« كان فظّا » ،

« كـان وغدا سافـلا » ،

« كان كريه المنظر » ،

« كريه الرائحـة » ،

« عذّبنا » ،

« جلـدنـا » ،

« أهاننـا » ....

أصغى « م ف » ، الى هذا البوح ، وقد جاشت في صدره ... رغبة فـي البكـاء .

« كان يعاملنـا كمـا يعامل افطاعيو القرون الوسطى رقيقالارض!»

« فضى في كنفهم طفولته ، وشاهـد افانيـن من استبدادهم ، فتعلّـم ! »

« وعلى الظلم تربى وترعرع ! » ،

« ثم طغى وتجبّر ! » ،

« طاردنا شبحه ... حتى ونحن في اسرّتنا نضاجع حلائلنا ! »،

« كان يطعمنا وعودا واكاذيب » ،

« ملأ معدنا خوفا ، وقلوبنا قلقا » ...

ثم ... هتفوا ، في صوت واحد :

ـ فليقتل ! فليقتل ذاك الوغد !

وانبرى احدهم يسأل :

ـ الا حدّثنا ، أيها المبعوث : كيف وفقت الى قتله ؟

ـ وجدته ... بيـن يديّ ... هشّا !!

وبدهشة استفسروه :

ـ بكل قوته وجبروته ، وجدته هشا بين يديك ؟!!

ـ لقد كانت في زنديّ قوة الجماهير ، قوتكم ، فبدا لي شبحـا هيوليـا لا فـوام لـه !

فعلا صوت راعش مأخوذ :

ـ هذا جبروت منك ، أيها المبعوث منلدن العناية . أنكون نبيا ؟

ـ لا .

ـ ولكنك ... تعمل وتتكلم ، على نحـو ما يفعل المرسلون !

ـ انمـا بعثت لاهديكم الى اباع رسالة الوحدة والتوحيد ،فـي زمن تفرق النـاس وارتـدّوا .

شهق بعضهم . واخـرون بكـوا ....

ـ يا لسعادتنـا ! يا لعصرنـا السعيد !

والبندقية ... زغردت من فرح .

ـ أيهـا المبعوث ، انبئنا : أليس يسوع ابنا للرب ؟

واخـرون سألـوا :

ـ ايها المبعوث ، انبئهم : أليس عيسى عليه السلام بشرا ؟

في امتحـان وضعوه .

رفع عينيه الى السمـاء :

ـ انما هو من روح اللـه .

فسرى الفرح في صفوفهم المتراصة. وزغردت البندقية ، فـي يـد حاملهـا ، من جديد . وانطلقت اصواتهم تشق عنـان السماء :

ـ عاش ! ـ عاش ! ـ عاش !

وتدافعوا نحوه ، محكمين حوله حلقـة !

ثار في صدره قلـق .

ـ ايها المبعوث : ايتنا بمعجزة ، نمنحك ايماننا المطلق .

تاق ، بلهفاته كلها ، الى اجتراح معجزة ! ... والحلقـة ، مـن حولـه ، تضيق وتضيق !

رنا ببصره الى السماء : لمح طيورا بيضا تحلق . تابعها بناظريه. تمنى بقوة لـو ...

حرّك كتفيه ، فاصطفق شيء مـا لصقهما : غدا لـه جناحان ! صفّق بهما .. فاذا قدمـاه ترتفعـان عن الارض ، واذا هـو يرتفـع شيئا فشيئا محلقا فوق الرؤوس !!

هتفـوا ، تحته ،في خشوع :

ـ قد آمنا ... قـد آمنّا ...

وبعضهم انحنى راكعـا .

وجناحاه القويان يخفقان براحة لا حد لها : أأمضي الى بعيد ؟

ـ أيهـا المبعوث السماويّ ، ابسط علينا جناح حمايتك .

تصاعدت اليه ، وهو يخترق الريح ، استغاثاتهم ونهنهات بكائهم:

ـ ارحم ضعفنا ، أيهـا المبعوث من لدن السماء ! نحـن احـوج ما نكـون اليك ، في يومنـا وفي غدنا ...

وفي العلاء ذرفت عيناه دمعتين ، رشفتهمـا الريح. أطل : اختلطت صفوفهم من هرج ، والحلقـة تلاشـت ...

غمغم في حنان : لقـد منحوني عالمـا من الثقة والمحبة . آه ، يا جماهير شعبـي المعذب !

وتهاطلت الدموع من عينيه مدرارا ،

ثم ... بسط جناحيه محوّما .

فاضل السباعي